



دفاع عن ظاهرة المتون وما بنى عليها

دكتور عبد الكريم محمد الأسعد

المتون والشروح: طبيعتها والغرض منها:

المتن مصطلح جرى إطلاقه عند أهل العلم على مبادئ فن من الفنون تكتف في رسائل قصيرة غالباً، وهي تخلو في العادة من كل ما يؤدي إلى الاستطراد أو التفصيل كالشواهد والأمثلة إلا في حدود الضرورة وذلك لضيق المقام عن استيعاب هذا ونحوه، لذلك عدت المتون الأقل ألفاظاً الأحسن في ذاتها والأكثر قبولاً عند الدارسين.

ولقد نشأت ظاهرة المتون المنشورة والمنظومة على حد سواء لتسهيل التعليم وتيسير الحفظ

والاستدكار والاستيعاب، وللمعاونة على حفظ أصول العلوم وقواعدها، وتبعاً لهذه الأهداف كان لابد أن تتميز طبيعة المتن بالاختصار والاقتصار على الأسس، وبالانكفاء بالانجاز والتلميح بدلاً من الإسهاب والتفصيح. وقد اقتضى وجود المتن بالضرورة شرحاً وموضحين، فوضع لها العلماء المصنفات الشارحة الموضحة، وتوخوا فيها التدرج والتنوع، فتراوحت لذلك بين الطول والقصر، وتفاوتت بين السهولة والعسر، وأصبح فيها الوجيز والوسيط والبسيط، وكل ذلك كان بشرح للدارسين ماغرض من المتن، وبفصل للطلاب ما أحمل فيها.

الحواشي والتقريرات واختصرات: طبيعتها والغرض منها:

دعت الضرورة بعد تأليف المتن والشروح إلى الحواشي المطولة لايضاح شروح المتن وحل مستغلقها وتبسيطها، فأخذ العلماء يصنفون هذه الحواشي ويستدركون فيها وينبون ويضيفون الأمثلة والشواهد والآراء وغيرها، وأكثروا مع الأيام من هذا التصنيف مما أدى الى كثرة هذه الحواشي وتنوعها وتفاوت ما فيها وتميز بعضها عن غيره بما يتضمنه كل منها من الاجتهادات المختلفة تبعاً لاختلاف فهم أصحابها لعبارة المتن والشرح الخفية المعنى، ومن ثم اجتهاد كل منهم في تحديد المراد بطريقة تختلف عن طريقة غيره في هذا السبيل.

أما التقريرات فهي بمثابة هوامش كان يسجلها المعلمون والمصنفون على أطراف نسخهم مما يعرهم من الحواطر والأفكار والملاحظات على نقطة معينة أو نقاط متعددة من هنا وهناك في أثناء قيامهم بالتدريس من الشروح والحواشي أو بالتصنيف عليها، يستدركون من خلالها على ما يعتبرونه نقصاً، أو خطأ أو غموضاً فيها، ومع الأيام طبعت هذه التقريرات في مكائنها من الهوامش الى جانب الشروح والحواشي، وأصبحت لأكثرها أهمية بالغة وقيمة كبيرة، وهي في إطارها الخاص وطابعها الموجز ومحتواها المكثف أشبه بالمتون وإن اختلفت عنها بأنها تنف متفرقة في معارف متنوعة ليس فيها ماق المتون من الرابطة العلمي العام، والجامع الموضوعي المشترك، ولا يربطها مايربط المتن من اتساق وتساق، ولا ينتظمها ماينتظم المتن من تسلسل في الموضوعات ووحدة في البحث، بل هي شذرات تكون على بعض ما هو هام في الشروح والحواشي ولا تكون على سائر محتوياتها.

وعندما استقر هذا النظام التأليفي القائم على المتن والشروح والحواشي والتقريرات، عمد بعض العلماء المصنفين في دورة معاكسة الى اختصار الشروح والحواشي المطولة، والى الاختصار مما كان في المتن والتقريرات، ثم الى العودة بالمتحصل من هذا كله الى

ما يشبه المتن مرة أخرى، وذلك لما رأوه فيها من التزيد الشديد، ومن الخروج الكثير عن الموضوعية، ومن الانتزاد إلى ملاحاجة ماسة له في مجال البحث.

المتون والشروح في عصور المماليك:

انتشرت ظاهرة المتن والشروح في العلوم المختلفة في عصور المماليك انتشاراً عظيماً، وأصبحت طابعا شاملا لتدريس هذه العلوم، ومنها سائلا من مناهج التأليف فيها، وقد أتجه علماء هذه العصور الى المتن فضبطوا فيها أصول العلوم بدقة وإحكام وجمعوها ولموا شعثها في صعيد واحد بعبارة موجزة جامعة دقيقة الاشارة يستطيع الدارس أن يستوعبها بأقصر طريق وفي أقل زمن، وغلا بعضهم في ايجاز المتن وضغط عبارتها حتى بلغت حد الرموز، ثم وجدوا بعد ذلك أن المتن جميعها بحاجة الى شروح توضحها فأحلوا في تصنيف الشروح لما صنفوا المتن وأسرفوا في ذلك كله إسرافا أدى الى أن توصف عصورهم من أجله بأنها عصور المتن والشروح.

وفي ظني أن الاكثار في عصور المماليك من المتن خاصة إنما كان لشدة حرص علماء هذه العصور على سرعة تلاقى ماضع من كتب العلم في كارتشي المشرق في بغداد والمغرب في الأندلس، وذلك بجمع شتات العلوم في قبضة اليد في صورة المتن، وأن الاكثار من الشروح في هذه العصور إنما كان لأن هذه العصور جاءت بعد عصور سابقة عاش فيها أئمة محققون مجتهدون تركوا تراثا متكاملا، فوفر في نفوس العلماء أنه ليس لديهم زيادة لمستزيد، وأنه لم تعد لديهم طاقة أو عندهم متسع للاجتهاد فسدوا بابه وأتجهوا الى الشروح يوضحون بها ما بين أيديهم من المتن، وأكثروا منها على النحو الذي رأيناه من الحشود المائلة بين أيدينا منها، يقول الدكتور محمد كامل حسين فيما يبدو كأنه أنسب ما يمكن أن يذكر في تحليل ظاهرة المتن والشروح التي سادت نظام التأليف في عصور المماليك «إن العلوم إذا تم تكوينها ووضع قواعدها نثر على العلماء فترة بعد ذلك طويلة أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو نقدها، ويكتفون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة، بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالقديم، هذا ما كان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة، وهذا ما حدث أيضا للمسلمين في جميع الأقطار الاسلامية بعد أن وضعت قواعد اللغة ودون الأدب العربي بألوانه وفنونه... فهذه الفترة فترة ركود ذهي العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباينة عن القديم، مرت بها مصر الفاطمية، بل مرت بها جميع الأقطار الاسلامية، بل أستطيع أن أقول اننا لانزال نعيش على هذه الأصول القديمة ولم نستطع أن نتحرر منها الى الآن فقواعد اللغة التي دونها

سبويه، وأصول الصرف كما تركه ابن جنى، وعروض الخليل بن أحمد... هي التي تسيطر على حياتنا العلمية العربية إلى الآن»^(١)

وهكذا وصل علماء عصور المماليك بالمتون والشروح بين قديم العلم وحديثه، وحالوا دون انقطاع الصلة بين ما قبل عصورهم وما بعدها في جميع العلوم، ولولا ذلك ربما كان لهذه العلوم نظام آخر غير هذا الذى ذكرناه، من هنا فإن هذه المتون والشروح تعد ظاهرة متميزة صورت عصور المماليك، وعكست الحياة العلمية فيها، وحققنا أنذاك القائدة المرجوة والنفع المتوخى منها.

الموسوعات في هذه العصور :

لم تكن عصور المماليك عصور متون وشروح فحسب، بل كانت أيضا عصور موسوعات^(٢)، فقد ظهر في هذه العصور علماء من ذوى العقليات العلمية الموسوعية التي تميل إلى التأليف الجامع وإلى وضع دوائر معارف واسعة تكون مصادر للعلوم المختلفة، وقد اجتمعت في هذه الموسوعات كل ألوان التراث الخالد الذى تركه العهد العباسى في بغداد والدولة العربية في الأندلس في العلم والأدب، ومن الواضح أن مادفعهم إلى العناية بالمتون والشروح هو نفسه مادفعهم إلى الاهتمام بالموسوعات، فقد رأوا أن كثيرا من التراث قد ضاع يسقوط هاتين الدولتين وحملهم هذا على أن يتجهوا في آن واحد إلى الاكثار من تصنيف المتون والشروح والموسوعات جميعا ليحفظوا الحضارة الاسلامية عن طريق حفظهم لذخائر الدين واللغة في هذه المصنفات.

وقد اتسمت موسوعاتهم بالاستطراد إلى الكثير من المعارف الفرعية في غير العلم الأصل الذى ألف من أجله الكتاب، فأصبحت هذه الموسوعات بذلك أشبه ما تكون بدوائر المعارف الواسعة المليئة بالمعلومات المتنوعة المفيدة، مما أدى إلى خلودها وأشتهارها واستمرار تداول الباحثين لها حتى الآن.

ومن هذه الموسوعات الهامة على سبيل المثال: نهاية الأرب للتهرى المتوفى سنة ٧٣٣هـ، وممالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ، وصبح الأعشى للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ، وغير ذلك كثير.

الجذور التاريخية للموسوعات :

لم تكن النزعة الموسوعية عند المصنفين في عصور الممالك ظاهرة جديدة تماما، فالعصر المملوكي «لم يكن مبتكرا كل الابتكار لفكرة الموسوعة، إذ الموسوعات العربية لها وجود فعل سابق لهذا العصر بمدة كبيرة، ولعل الجاحظ أول كاتب في الإسلام يمكن أن يكون خليقا باسم الموسوعي، والحق أن كتب الجاحظ مجتمعة يمكن أن تكون موسوعة كبرى لم يسبق إليها، ثم يصح أن يكون رجال كآب قتيبة وأبى حيان التوحيدي وصاحب كتاب الأغاني موسوعيين بهذا المعنى، ثم لافتر بعدئذ من النظر أيضا إلى رسائل إخوان الصفا على أنها موسوعة فلسفية» (٣).

من هنا يمكن القول بأن النزعة الموسوعية بدأت بالظهور في العصر العباسي الذي مالبث أن حفل بالكثير من الموسوعات المختلفة، ثم آل الأمر إلى اتساع هذه النزعة في عصور الممالك وأخذها طابعا شاملا في التصنيف لدى جمهرة علماء تلك العصور الذين يمثلهم في هذا الباب خير تمثيل الجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ فقد كان صاحب عقلية موسوعية وإنتاج غزير تبدي بوضوح من خلال مآثره من آثار تكاد تربو على ستائة مؤلف ورسالة تتراوح بين الأسهاب والابجاز، حشد فيها الكثير من الروايات والأخبار والنصوص والأقوال وغير ذلك في فنون مختلفة، حتى بدت جميعا وكأنها دائرة معارف واسعة مفصلة.

الحواشي والتقريرات والمختصرات في العصر العثماني:

اقتصرت التصنيف في العصر العثماني تقريبا على الحواشي والتقريرات والمختصرات، ولم يخل بالطبع من كثير من الشروح لكثير من المتون، ولكنه تميز بكثرة حواشيه وتقريراته بالذات كنية بالغة، وظهر فيه علماء أجادوا في تصنيف أكثر الحواشي على وجه الخصوص، وأحسنوا ترتيبه وتقريبه وأفادوا منه الدارسين بما إفاده، وكان لهم فيه مواقف وآراء ومناقشات تطوى على ألوان من الابداع والتجدد العلمي، ومن هؤلاء الشنوائى المتوفى سنة ١٠١٩هـ والدنوشرى المتوفى سنة ١٠٢٥هـ والحفنى المتوفى سنة ١١٧٦هـ والصبان المتوفى سنة ١٢٠٦هـ وغيرهم.

ولكن إعجابنا بما كان من جمهرة هذه الحواشي لا يمنع من الاقرار بأن القليل منها لم يكن على المستوى المرغوب، وبأن صانعي هذا القليل كانوا كذلك، وهذا ليس بغريب،

لأنه شأن التأليف والمؤلفين في كل زمان ومكان، يكون فهم الجيد وغيره، وتتفاوت مصنفاتهم في الجودة وضدها، وعلى كل حال فإن هذا القليل على الرغم من ضخامة بعضه وسط القول فيه كان مشوباً في أكثر من موطن بالقول الناقصة أو المضطربة أو التي يناقض بعضها بعضاً، وهي نقول لم يستند ناقلوها أيضاً لسبب أو لآخر إلى مصادرها الأصلية مباشرة بل اعتمدوا في ذلك على وسيط سابق أو أكثر من وسيط، وأستغفوا بذلك عما يجب أن يكون من التحقيق العلمي الدقيق، وكان كذلك حافلاً بالتقليد والتكبر والتزهد بلا داع قوي، ومصطنعاً للأحاجي والألغاز دون مبرر، وملتبناً بالاعتراضات والردود عليها ثم الردود على الردود في غير ماضرة داعية، وهذا كله مع الامعان في تعقيد الألفاظ وإغماض التركيب وكتابة الحشو بمصطلحات القنون المختلفة والأفراط في التعلق بالاستطراد لأدنى ملاسة، ومع عدم ملاحظة مصنفى هذه الحواشي لمستوى الدارسين حتى أصبحنا نرى في بعض الحواشي التي وضعها أصحابها للمبتدئين من المسائل مالا يهضمه إلا من تزود من العلم بقسط وفير، وقد ترتب على هذا أن نفر بعض الطلبة الذين لم يتحلوا بالجلد والصبر من العلم حين صدموا في مطلع حياتهم العلمية بهذه الحواشي وأنظمت عليهم مسالكها وفاتهم تحقيق الغرض السليم منها.

على أن هذا كله لم يكن كما ذكرنا إلا وصفاً للقليل من هذه الحواشي، أما جمهورها، وكذلك أكثر التفهيمات والمختصرات فقد كان جيداً جودة طيبة، وهو مازال وسيبقى جزءاً كريماً من تراثنا الخالد لا يستغنى عنه دارس متعمق مهما علا كعبه في العلوم والمعارف، وستفصل القول عن هذه الجمهرة الطيبة في حديث لاحق من هذه المقالة ندير فيه الكلام على هذا النظام التأليفي برمته من خلال وضعه في الميزان.

من مصنفات هذا النظام التأليفي في عصور المماليك والعثمانيين:

كثرت كما سبق أن أوضحنا المتون المنتهية والمنظومة والشروح، ثم الحواشي والتفهيمات، في عصور المماليك، ثم في عصور العثمانيين على التوالي، في مختلف العلوم، ومن المناسب بعدما تقدم أن نورد أسماء بعض هذه المصنفات وهي :

- شرح ابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢هـ لأرجوزته «الامية الأفعال».
- شرح ابنه بلر الدين المتوفى سنة ٦٨٦هـ لنفس الأرجوزة.
- شرح لعبد العزيز البخاري المتوفى سنة ٧٣٠هـ لمن «كنز الوصول ال معرفة الأصول» المعروف بأصول البردوي لعل من محمد بن الحسين البردوي المتوفى سنة ٤٨٢هـ، وقد

- سمى شرحه «شرح أصول البردوى» أو «كشف الأسرار» أو «كشف بردوى».
- شرح علاء الدين طبرس المتوفى سنة ٧٤٩هـ لمنظومته النحوية المسماة «الطرف».
- شرح لصفي الدين الخلي المتوفى سنة ٧٥٠هـ على منظومته «الكافية البدئية في المبادئ النوبية».
- شرح زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقى المصرى المتوفى سنة ٨٠٦هـ لألفيته في علوم الحديث.
- شرح شعبان بن محمد المصرى الأنازى المتوفى سنة ٨٢٨هـ لمنظومته النحوية «الحلاوة السكرية» وقد سمي شرحه «الفلاحة الجوهريّة في شرح الحلاوة السكرية».
- شرح لشمس الدين محمد اليربوعى المصرى المتوفى سنة ٨٣١هـ على ألفيته في أصول الفقه المسماة «النبتة الألفية في الأصول الفقهية».
- شرح لبرهان الدين ابراهيم بن محمد القياصى الخلى المتوفى في حدود سنة ٨٥٠هـ على ألفيته في المعاني والبيان.
- شرح برهان الدين القياصى المتوفى سنة ٨٨٥هـ لأرجوزته «الباحة في علمى الحساب والمساحة».
- شرح الجلال السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ لألفيته في النحو المسماة «الفرهيدة»، وقد سمي شرحه «المطالع السعيدة في شرح الفرهيدة».
- شرح بخرق اليمنى المتوفى سنة ٩٣٠هـ على لامية الأفعال لابن مالك، وقد سماه «فتح الأفعال وحل الإشكال بشرح لامية الأفعال».
- حاشية على شرح جمع الجوامع في أصول الفقه اسمها «آيات الينبات» لأحمد بن قاسم الصياغ العبادى الذى يعبر عنه أحيانا ب «سهم» اختصارا، المتوفى سنة ٩٩٢هـ أو سنة ٩٩٤هـ.
- شرح ابراهيم الكرمبائى المعروف بشريفى المتوفى سنة ١٠١٦هـ لأرجوزته النحوية المسماة «الفرائد الجميلة» وقد سمي هذا الشرح «القوائد الجليلة في شرح الفرائد الجميلة».
- «تلخيص الأساس في شرح البناء والأساس» لعل بن عثمان، وهو شرح لمتن «البناء والأساس» في علم الصرف لأحمد رشدى القره ألاجى.
- شرح محمد الكفوى بن الحاج حميد على متن «البناء والأساس» السابق، فرغ منه سنة ١٠٤٦هـ.
- شرح رسالة أبى زيد في مذهب المالكية لعل الأجهورى المالكى المتوفى سنة ١٠٦٦هـ.
- حاشية على تفسير الجلالين لعطية الأجهورى الشافعى المتوفى سنة ١١٩٠هـ.
- شرح محمد بن زكري من علماء القرن الثانى عشر الهجرى لألفية جلال الدين

- السيوطي المسماة «الغريدة» وقد سمي شرحه «المهمات المفيدة في شرح القريدة».
- شرح لأحمد الدردير على منته الذي سماه «تحفة الاحوان في علم البيان».
- حاشية لأحمد محمد الصاوي على شرح الدردير السابق، وقد فرغ منها سنة ١٢١٩هـ.
- تقريرات لعل بن حسين المرعي البولافي على حاشية الصاوي السابقة.
- حاشية ابن حمدون التي فرغ منها سنة ١٢٤٩هـ على شرح بحرق للامية الأفعال لابن مالك.
- شرح حسن قويدر الخليل المتوفى سنة ١٢٦٢هـ لمنظومة استاذه حسن العطار في النحو.
- شرح محمد الحضري الدماطي المتوفى سنة ١٢٨٧هـ المسمى «جلاء الطرف» على منظومته النحوية المسماة «منظومة الإخبار بالطرف».
- شرح ناصيف اليازجي الذي مات سنة ١٢٨٨هـ المسمى «الجمانية» لمنظومته الصرفية المسماة «الخرانة» وشرحه المسمى «نار القرى» لمنظومته النحوية المسماة «جوف الفراء».
- شرح الاجرومية لأحمد بن زيني دحلان ألفه سنة ١٢٩١هـ، وله أيضا: حاشية على السمرقندية في علم البيان، حاشية على الاظهار في التجويد، شرح على العقائد، رسالة في علم الوضع وفي علم الجبر والمقابلة، رسالة في الميقات، رسالة في وعيد تارك الصلاة، رسالة صغوية في علم البيان، رسالة في المقولات، رسالة في مباحث البسملة، رسالة في صيغ الصلوات على النبي ﷺ، رسالة تتعلق بنجاء زيد، رسالة متعلقة بقوله تعالى: «ما أصابك من حسنة» فمن الله، حاشية على الزيد في الفقه لم تكتمل، وغير ذلك.
- شرح عليش الأزهري المتوفى سنة ١٢٩٩هـ المسمى «حل المعقود من نظم المقصود» لأرجوزة أحمد الظهطاوي المتوفى سنة ١٣٠٢هـ في الصرف المسماة «نظم المقصود» وهو متن المقصود في الصرف المنسوب لابن حنيفة.
- «تسهيل نيل الأماني في شرح عوامل الجرجاني» أو «تسريح العوامل في شرح العوامل» لأحمد بن محمد زين مصطفى الفطاني، وهو شرح لمتن «العوامل النحوية» لعبد الظاهر الجرجاني، وقد فرغ منه سنة ١٣٠٠هـ.
- حواشي لأحمد بن محمد زين مصطفى الفطاني على شرحه السابق.
- تقريرات تشرح بعض مسائل التسهيل والخلاصة الألفية لابن مالك، وهي للمختار بن

بون المغربي الشنقيطي المتوفى بعد سنة ١٢٣٠هـ على هامش كتابه في النحو المسمى «الجامع بين التسهيل والخلاصة المانع من الحشو والخصاصة».

- تقريرات للمختار بن بون نفسه كالشرح على كتابه المسمى «الهجاء» و رسم الحروف في الكتابة».

- شرح محمود محفوظ الدمشقي من علماء القرن الثالث عشر لمنظومته في النحو المسماة «الليل المليح».

- حاشية «تشويق الخلال» ل محمد معصوم بن سالم السماراني السفاطوني وهي على شرح الأجرومية لأحمد بن زيني دحلان، وقد فرغ من هذه الحاشية سنة ١٢٣٣هـ.

- «الخرقة البية في إعراب ألفاظ الأجرومية» لعبد الله بن عثمان المكي العجيمي، فرغ منها سنة ١٢٣٧هـ، وبهامشها فوائد وتبتيات للمصنف نفسه.

- «فتح اللطيف شرح حديقته التصريف» لعبد الرحمن بن أحمد الكسلان، فرغ منه سنة ١٢٥٤هـ، وقد شرح فيه أرجوزته المسماة «حديقة التصريف في علم التصريف»..

- شرح «السلسل المدخل في علم الصرف» ل محمد بن محمد الياس الجاوي القنديل من علماء القرن الرابع عشر.

- شرح «مرشد الولدان الى معاني هداية الصبيان» في علم التجويد لسعيد بن سعد بن نهبان الحضرمي من علماء القرن الرابع عشر الهجري، وهو شرح لمنظومته المسماة «هداية الصبيان في التجويد».

- شرح لابن يحيى، وشرح آخر للديبواي، وشرح ثالث لم يعلم مؤلفه، وجميعها على لامية الأفعال لابن مالك.

- حاشية أحمد الرفاعي على شرح بقرق هذه اللامية.

- حاشية الفيومي على نفس هذا الشرح للامية ابن مالك.

- تقريرات اسمها «القصر المبني على حواشي المعنى» لعبد الهادي نجبا الأبياري، وهي مطولة على حاشية الأمير على معني ابن هشام الأنصاري.

حاشية على فتح المعين في الفقه لأبي بكر محمد شطا المكي.

وغير ذلك كثير جدا في العهدين، في علوم شتى.

منهج للتأليف والتعليم معا :

لم يكن النظام التأليفى القائم على المتن والشروح والحواشي والتقريرات والمختصرات منهيح تصنيف فحسب، بل كان منهيح تعليم أيضا، فقد رأينا المعلمين يبدأون في العادة بعد أن يحفظ الطلاب المتن في شرح ألفاظها وحل ما كان معقدا منها، وإيضاح المراد بها عن طريق الشروح والحواشي وما بينهما، وهو أسلوب تعليمي يحتاج من المعلم والدارس معا جهدا قويا وملكمة مناسبة وقدرات خاصة وقابليات متميزة.

لهذا ساد هذا النظام الحياة العلمية درسا وتصنيفا، وتعددت المتن والشروح والحواشي والتقريرات والمختصرات وتنوعت وتواتت فكان لنا من كل ذلك ثروة علمية عظيمة القيمة خلدت مع الزمان، لأنها حفلت بالمعارف المفيدة والآراء السديدة والنظرات المبتكرة، بالإضافة الى أنها حفظت لنا نصوصا من أصول ومصادر عدت عليها العوادي ولم يصلنا منها غير أسماؤها، ومن المتن والشروح الخالدة لقيمتها الرفيعة ومزاياها العالية كافية ابن الحاجب وشافيه وشروحهما، وألفية ابن مالك وشروحها، ومعنى ابن هشام وشروحه، فهي مصنفات غزيرة المادة العلمية، عالية المستوى، مازالت إلى اليوم محل دراسة المهتمين بعلم النحو وتقديرهم لم يعها أو يذهب بحاسنها أو يقلل من قيمتها ومنزلتها مارميت به بعض المتن والشروح من قصور العبارة عن الدلالة الواضحة، ومن أنها كانت نقلا وتقليدا قليل الفائدة ونحو ذلك من المثالب والعيوب.

المتن والمختصرات والشروح والحواشي والتقريرات في الميزان:

لم تحظ المتن بالذات - ويقاس عليها المختصرات - بالقبول لدى فريق من العلماء حتى في زمان رواج المتن في عصور الماليك، فقد رأينا ابن خلدون مثلا المتوفى سنة ٨٠٨هـ يتعرض لها بالانتقاد، وينعى على أهلها أسلوبهم، ويقول عنه «وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل» (١) ويقول عن أصحاب هذه المتن «قصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات الناقصة وتمكنها» (٢).

وقد رأينا أيضا كثيرا من الباحثين المعاصرين (٨) يكثر من انتقاد هذه السلسلة من التواليف ويصرف في مهاجمتها، ويحشد في سبيل ذلك العديد من المآخذ والعيوب، ولا يستثنى منها بعضها، بل يرى إنها جميعا قد أفسدت العلوم، وعبرت عن مظاهر التخلف، ودلت على جهود الملكات، وإن المتون نشأت عند المتأخرين في عصور المماليك حين أجذبت العقول وأنعدم الإبداع وكلت الفرائح عن الاتيان بجهد من العلم، وحين أنصرف العلماء إلى تكرار ماورثوه وإلى إعادة صوغه نظما ونثرا على شكل متون، وإلى التلاعب بصياغات الألفاظ والانصراف إلى الحيل اللفظية والأحاجى الشعرية والنثية والنكات اللغوية، وإن أكبر عيب في المتون وكذلك في المختصرات هو إيجازها الخلل الذي أدناها من المعميات وذلك بسبب ما أدى إليه هذا الاختصار من تكديس المعاني واختزال الألفاظ وقصور العبارات والتواتها وغموضها، وإن أكبر عيب في الشروح والحواشي ومثلها التفسيرات هو اشتغالها بالمظهر دون الجوهر، وتشاغلها بالألفاظ عن المعاني، وتلهيها بالقشور عن اللباب، وأختيارها الأمثلة مرددة مكرورة لا تتجاوزها إلى غيرها كاختيارها الدائم في كل أمثلتها زيدا وعمرا، وضرب زيد عمرا، ونحو ذلك، وترديدها الجمل معادة مبتدلة، وإكثارها من حشد الآراء ورص المسائل بمناسبة وبغير مناسبة، وتعرضها لأمر ليست من صلب الموضوع، وأستطرادها المعيب إلى مالا يمت إليه بصله مما أدى إلى الاحلال بوحدة الموضوع، وإلى زيادة الغموض والأمعان في التعقيد بدلا من الإيضاح والتسهيل، وإلى الخلط الذي يربك المتعلم ويضله، ولاسيما فيما ألف منها لأصاغر الطلاب وأوساطهم من غير نظر إلى مستواهم العقل وإلى مبلغ قدرتهم على فهم محتوياتها من المسائل الصعبة والآراء المفصلة المتشعبة، تلك التي تستحق أن تعرض في الأمهات النحوية الكبيرة التي يدرسها المتقدمون في النحو، كذلك رموها بالاكثار من التعرض لفضائها المنطق والكلام والتعليل الفلسفي، وبأنها مملوءة بالحدود الكثيرة المتضمنة للقيود والاهتزازات المعقدة، وذكروا أن ذلك كله لا يفيد النحو عندهم في شيء، وذهبوا في مهاجمتها إلى أنها لا تساعد على إتقان الجدل اللفظي الذي ينمى ملكة الفهم كما يقول مؤيدوها، وإلى أن إتقان الجدل في الألفاظ وتنمية ملكة الفهم للمعاني على أهميته يمكن إدراكه من غير سبيل هذا النظام التأليفي المخصوص، وذلك عن طريق تحصيل الحقائق العلمية نفسها الموجودة في غير هذا النوع من التأليف، وأن هذا يبدو واضحا في علم النحو على سبيل المثال، فهو علم تحفل كتبه من غير المتون والشروح وما ينبت عليها بكثير من وجوه الخلاف بين النحويين، وتردحهم بالآراء الكثيرة في التأويل والتوجيه وفي العوامل والعلل النحوية وغير ذلك، وفي هذا كله مجال فسيح للتمرن على البحث والتدرب على الجدل في المباني عن طريق تحريك الألفاظ والتعامل مع العبارات، وفي المعاني من خلال

توجيه الكلمات وتأويل التراكيب، فضلا عن تحصيل المعارف العلمية ذاتها وإثراء العقل باستيعابها.

وقد رمت أيضا بأن المهتمين بهذا النظام التأليفى، المنصرفين الى درسه فحسب، المعجيين به وحده، المتعلقين بتحريك ألفاظ النصوص فيه دون سواها هم في النهاية أعجز من غيرهم عن تذوق مضمون أى نص أدى جميل يعرضون له وعن فهمه، وهم أكثر عجزا عن تطبيق معلوماتهم النحوية عليه وعلى أمثاله لقلة خبرتهم في التطبيق، كذلك رمت هذه السلسلة من التأليف بأن أساليبها ومحتوياتها ومناهج تصنيفها لا تتفق مع الحقائق التربوية الحديثة والمناهج التعليمية العصرية لأنها من جهة تتسم بصعوبة الأسلوب ووعورة المضمون وبهوش المنهج، ولأن ما فيها من القواعد لا يناسب من جهة أخرى قابليات الطلاب بصورة عملية لخلوها في الغالب من التمارين التى تساعد على ترسيخ القواعد في أذهان الطلاب وتعاونهم على التطبيق العملى، ولزواجها أيضا بين الزيادة في بعض المسائل والنقص في مسائل أخرى، ولأنها لم تكن كذلك تمهد لقواعدها بالمقدمات اللازمة والعناصر الواضحة.

وملخص القول عند المتفكرين أن المتون وشروحها وما صنع لهذه الشروح من حواشٍ وتقريبات بالإضافة الى المختصرات كانت جميعا مظهرا يعكس انحطاط عصور الماليك وعصور العثمانيين على حد سواء، هذا الانحطاط الذى يعد نتيجة طبيعية لانصراف علماء العصرين الى شؤون حياتهم اليومية، ولجهالة حكامها الذين كثر فيهم من لا يمت إلى الأصول العربية بصله، ولا يهتم لذلك بعلوم اللغة على وجه الخصوص، وان هذه المنصفات جميعا إن هي إلا صور لظنية استحدثها علماء هذين العصرين بأخوه وصاغوا بها المعارف والعلوم صياغة حاولوا بها الإيهام بأنهم أتوا بجديد، وهم في واقع الأمر لم يأتوا بجديد، وأنها قلما تسلم من غموض العبارة أو خطأ الفكرة أو مخالفة الاصطلاح السليم أو غلط الرواية المعروضة، وأنها تصرف عن اللب الى القشور، وأن الطالب ينو بها حين ينقل نظره مرات متتالية بينها، وتصرفه العناية بالألقاظ عن العناية بالمسائل نفسها، وأن مصنفها يترجع منها حين تقتضيه مجهدا كبيرا يبدله في التوفيق بين الأسلوب واختوى والمنهج فيها، وأنها لم تعتمد في الخلافا النحوية على الأساليب العربية ولم تتوحد في طرقها وهدفها وكثر فيها القليل والقال وأصاب فلان وأخطأ فلان، وأنها سلبت في النهاية من علم النحو بهجته ورواه.

أمام هذا الحشد من الموسومة بالحماس لا يسعنا إلا أن نقول ببدء وموضوعية إن هذا

النظام من التصنيف على الرغم من كل ما قرره مناهاضوه، فيه بدون شك خصوصية علمية تتجلى في كثرة المعلومات المجموعة وتنوعها وطريقة عرضها المتشيرة، بالإضافة الى ما فيه من الطرائف والقرائد والأجتهادات والأضافات والموازنات والمناقشات المصوغه جميعها في منهج للتأليف يناسب زمانه ويتطابق ما يحتاجه طلاب ذلك الزمان من الذين فرغوا للتحصيل وتبشروا له وأكبوا عليه وأنصرفوا عما سواه، ويتلادم مع من سار على متوالهم وحلوا حذوهم ونهجع نهجهم من طلاب كل زمان، لا يقلل من هذا ولا يحط من قيمته نظريات التربية الحديثة ومقولاتها في طرائق التأليف ووجوه التصنيف في زماننا هذا الذي حفل بالمطابع الحديثة وبساتر وسائل النشر العصرية مما لم يكن متاحا قبل ذلك فيما مضى من الأزمان.

على أنه لا نغفل من الأقرار بأن العلم في هذا النظام هو أغزر منه فيما تلاه من المؤلفات الحديثة، وأن التحصيل من هذه السلسلة التأليفية أكثر نفعاً وأعظم فائدة من التحصيل من غيرها من الكتب العلمية المعاصرة التي خالفتها في المنهج وأختلفت عنها في المحتوى والأسلوب، وأن الدارس لهذا النوع من المصنفات لابد أن يتحلى بالصبر والكد وأن يكون مالكا للملكة لا أظن أن مثلهما مطلوب في غيره من الطلاب الذين ينصرفون الى أنواع أخرى من الدرس في كتب المعاصرين.

ان المتون والشروح التي صنفت في عصور المماليك، وكذلك الحواشي والتقريرات والمختصرات التي صنعت في عصور العثمانيين، هي في الحق والحقيقة ذخائر نفيسة دلت على الحياة العلمية المزدهرة في عهد المماليك بل في عهد العثمانيين أيضا خلافا لكل ما يقال وهناك، فالمتون والمختصرات متكاملة والشروح شاملة والحواشي والتقريرات مصقولة مجلوة، وكل هذه أوجدت الباحث القادر على الموازنة بين آراء النحويين، وعلى المقاضلة بين مذاهبهم، مع التعليل للمختار منها، وإدراك وجوه الرجحان والمرجوحية فيها، وعلمت الدارس معارضة قول بقول ومقارنة رأى برأى ومقارعة حجة بحجة، وفتقت في ذهنه أفكارا مبتكرة وأهمته إضافات جديدة، وحملته مع طول إلفه لها على طراز متميز من التفكير لا يفتق ببنى الأقوال إلا بعد أن يقوم عليها الدليل وتسندها الحججة.

أما الغموض الذي عيبت به هذه المؤلفات فعندى أنه ليس مما يعاب، بل عكسه الذي يعاب، فأين من كأول أن يحصل العلم يسر وسهولة من ذلك الذي يحصله بكد ومشقة وعناء، وأين مستوى هذا من ذلك، وشتان بين الملكة والقدرة ومادة التحصيل ولذته هنا وهناك.

على كل حال إن هذا الغموض لم يكن من الظواهر التي أنفردت بها المتون ومابني عليها من المؤلفات وحدها حتى تعاب به دون غيرها، فلقد كانت امهات الكتب القديمة لا تخلو من غموض، بل كان هذا الغموض يكثر في بعضها كثيرة واضحة، فقد عرف عن كتاب سيبويه مثلا أنه كان في أمكنة كثيرة منه شديد الأجزاء مضغوط العبارة غامض اللغة صعب المدلول مزدحما بالمعاني والأغراض، كذلك لم ينكر بعض الأعلام من القدماء الغموض ولم يستهجنوه، بل كانت لهم في تبيره أقوال، قال ابن كيسان مثلا «نظرنا في كتاب سيبويه فوجدناه في الموضوع الذي يستحقه ووجدنا ألقاؤه تحتاج إلى إيضاح، لأنه كتاب ألف في زمان كان أهله يألون مثل هذه الألفاظ، فأختصر على مذاهبيهم» (١٠)، وقال أبو الحسن علي بن سليمان الأحمشي الأصغر أيضا «عمل سيبويه كتابا على لغة العرب وخطها وبلاغتها، فجعل فيه بينا مشروحا وجعل فيه مشتبا، ليكون لمن أستنبط ونظر فضل، وعلى هذا خاطبهم الله عز وجل بالقرآن» (١١)، وقد أهد هذا أبو جعفر النحاس بقوله «وهذا الذي قاله علي بن سليمان حسن، لأن بهذا يشرف قدر العالم وتفضل منزلته، إذ كان ينال العلم بالفكرة وأستنباط المعرفة، ولو كان كله بينا لاستوى في علمه جميع من سمعه فيبطل التفاضل، ولكن يستخرج منه الشيء بالتدبير، ولذلك لا يمل لأنه يزداد في تدبره علما وفهما» (١٢)، وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي «من الأبواب مالوشفتا أن نشرحه حتى يستوى فيه القوى والضعيف لفعلائنا، ولكن يجب أن يكون للعالم مزنة بعدنا» (١٣)، وجاء في بعض الروايات أن الجاحظ أعرض على أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأحمشي الأوسط قائلا: «أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتابك مفهومه كلها؟ وما لنا نفهم بعضها ولأنفهم أكثرها؟ وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟! فقال: أنا رجل أم أضع كسبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلت حاجاتهم الـ فيها، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعومهم حلوة مالفهموا إلى أئمناس فهم مالم يفهموا، وإنما قد كسبت في هذا التدبير، إذ كتبت إلى التـكسب ذهبـت» (١٤).

وكما تقتضى طبائع الأمور في كل القضايا النظرية التي يدور حولها خلال وتعدد فيها وجهات النظر وتحتل هذه الجهات الجدل والتقاش رأينا فهنا من الباحثين المعاصرين يحدو حدو هؤلاء القدماء فيدافع عن هذا النظام التأليفي، ويمتدح هذا اللون من التصنيف، ويؤيده ويعتبه ممتازا ويجعله متميزا على غيره من النماذج التي تراها مصنوعة في العصر الحاضر، ويرى أنه في أسلوبه ومنهجه ومضمونه يرمى إلى غاية تعليمية متميزة تتميز هذا الأسلوب والمنهج والمضمون، وأن لهذا النظام التأليفي ميزات قل أن توجد في غيره أو

تتحقق في سواه، ذلك «أن معالجة العبارات والنقاش في تأويل معناها ومبناها، والدوران حولها لتفهما بطرق مختلفة وتعرف نقصها وتذليل صعابها وتحلية غموضها، كل هذا له فائدة في شحذ الفكر وتكوين ملكة الفهم والمران على حل المعضلات اللفظية وعلى الجدل العلمي» (١٢)، وأن لهذا النظام أيضا فوائد لا تحصى مما عداه حتى بالنسبة للمبتدئين وذلك من ناحية التدرج في التحصيل العلمي خلافا لما قيل ولما يقال «فالمبتدئ، يتنعم بدراسة المتن ويتفهم ماتضمن من حقائق موجزه، ثم ينتقل الى الشرح وهو أوسع وأوفى، ثم يرقى الى الحاشية والتقريرات ليستوفى ما فيها من تمحيص وزادات ليست في الشرح، والى جانب هذا كان حفظ المتن عن ظهر قلب عوناً على الائتم بالحقائق العلمية وسهولة أستحضارها والإجابة عن دقائقها، وأن هذه السلسلة التأليفية مرابا إن لم تتحقق في عصرنا لكثرة الشواغل وزيادة الصوارف عن العلم فيه فإنها قد تحققت في عصور خاصة غير عصرنا القائم «فقد تحققت يوم كان المتعلمون فارغين لها منقطعين لحفظها ودرسها وفك طلاسمها بملازمة أساتذتهم وعلمائهم والرجوع إليهم وإلى الشروح والتقريرات، يوم كانت الحياة هادئة ومطالب العيش محدودة والقناعة غالبية وسن الطلاب كبيرة، وتقربهم الى الله بإتقان هذه العلوم واحتفال متابعيها قويا، أما اليوم فلا شيء من ذلك كله، فالحاجة الى النحو ليست في المرتبة الأولى لكثير من الناس وطلاب الدراسات العالية... وإنما هي حاجة المستكمل الذي تدفعه روح العصر الى التجميل بألوان من الثقافة العامة لا يليق بالمتحضر أن يجهلها ولا أن يجرد نفسه من قدر منها، فهو في تعلمها غير أصيل وحظه منها يسير» (١٣) وأنه «من الأنصاف أن نعرف بما لتلك المتن في غالب أحوالها من مرابا جلييلة لا ينكرها إلا جاحد أو جاهل» وأنها مع الشروح والحواشي والتقريرات والمختصرات «تنطوي والحق يقال على ذخائر غالية وتضم في ثناياها كنوزا نفيسة» وأن «استخلاص تلك الذخائر والكنوز مما يغشاها عسير اليوم أى عسير على جمهرة الراغبين» (١٤).

إن هذا النظام التأليفى بنشأته ثم بما طرأ عليه من تطور عصرنا بعد عصر بعد في كل مرحلة من مراحلها أمرا طبيعيا مناسباً لزمانه وله أسبابه وبواعثه التي لا افتعال فيها ولا غلو أو شذوذ، فظاهرة المتن مثلا «حفظت من العلم جوهره ولبابه وقامت ولا تزال تقوم بدورها الكرم في مسرح التعليم من ذلك العصر البعيد الى عصرنا الجديد» (١٥) كما أنها مع الشروح كانت في عصور المماليك «طورا طبيعيا في تاريخ التأليف، إذ لابد أن يعقب طور التوسع والتخصص في التأليف طور يقرب لطلاب العلم وناقشته تناول العلم وبعابهم على بلوغ إرتبهم منه في وجازة وعجلة وبخاصة صغار المثقفين ويجمع لهم حقائق العلم في متون يسهل حفظها فأستحضارها وقت الدرس لتكون موضع المناقشة والشرح، ومن ثم يعمد

بعض المدرسين بعد إلى تناول المتن بالشرح مرة أخرى ليجلي ما قد يكون غامضا منها ويفصل ما قد يكون مجملا وهكذا، وعصر المالک عصر إحياء وبعث وتجديد، وعصر تعليم ونشر للثقافة مع رغبة كاملة في العجلة ولفه مختصة في الوصول، وهذا من شأنه أن يدفع إلى الاختصار ووضع المتن ومن ثم إلى الشرح والتحشية (١٥).

وقد تحمس بعض الشيوخ المعاصرين من الذين ارتبط تلقبهم بهذا اللون من التصنيف، وأصطبغت معارفهم وعلومهم، ثم قامت تأليفهم ودروسهم على هذا النظام من الكتب في الدفاع عنه دفاعا قويا، فهذا الشيخ محمد أحمد عرفه مثلا يرى - وهو عندي على حق - أن العالم إنما «يمتاز بفهم الغامض وإدراك البعيد وحل المستعقل، وذلك لا يكون إلا بتعبود المرء على شيء من الصعاب يجرن عقله على حل ما يماثلها، وكما أن المرء الرياضي لا يكون قويا على حمل الأثقال إلا بالتعود على حمل أحمال ثقيلة متدرجا في ذلك، كذلك لا يكون عقله قادرا على حل الصعاب إلا إذا عود عقله على حل مسائل عويصة متدرجا في ذلك». ويقول الشيخ أيضا عن فهم النصوص وتحصيل المعلومات وعن مستوى أهمية كل منها «كان شيوخنا في الأزهر يعنون في دروسهم بفهم نصوص الكتب، وكانوا يجعلون لها حفا كبيرا من الزمن ربما طغى على خط العلم نفسه، وكنا إذا حاورناهم في ذلك قالوا إن صناعة فهم النصوص تجدى عليكم عند استقلالكم بالعمل وتجعلكم تقفون على أرجلكم وتأخذون العلوم من معادنها، ولكننا إذا حفظناكم العلوم دون أن نعلمكم هذه الصناعة بغير عاجزين عن أن تأخذوا العلم إلا من معلم، ولم تقدرنا على الاستقلال بأنفسكم وكسب العلم دون الاستعانة بأحد» وفي هذا إشارة إلى أن مطلب تحصيل المعلومات ليس مما يصح إغفاله، كما أن مطلب التمسر بفهم النصوص العويصة وتحكيك ألفاظها ليس مما ينال من أهميته وعظومته ونسبته مكان الذبوة بحال، وعندى أن من يتقنون هذا الفهم ويصلون من خلاله إلى المعنى المقصود ولا يتصاحون أو يملأون أشداقهم بما يسمى الغموض والعقم هم أدنى الناس إلى أصحاب الابتكار وأقربهم إلى أهل الاجتهاد، وأن هذا الذي يراه أولئك غموضا وعقما ليس في حقيقة الأمر سوى عدم القدرة على الفهم، أو على الفهم على الوجه الصحيح في أحسن الأحوال، ولنا في قدامى العلماء المجتهدين الذين صبروا على مائ المتون مثلا من غموض وعمدوا إلى إزالته وإيضاح ما أشد منه وإكمال ما ناقص فيها ولم يركنوا إلى مجرد القدرح فيها ولا هم أطرحوها ومعها الشرح والحواشي والتقارير من أجله، أسوة حسنة، فهذا أبو حيان الأندلسي يقول في مقدمة شرحه المسمى «النكت الحسان في شرح متن غاية الأحسان في علم اللسان» «هذه نكت أمليتها على مقال نشر وهو غاية الأحسان في علم اللسان، فتحت فيها مقلها وأوضحت مشكلها، وأكثرها إنما هو ابداء

حكم في صورة المثال، وربما أُلْمِتْ بزيادة حكم أو ذكر خلاف أو استدلال، ولم أقصد إرخاء العنان في هذا المضمار بل آثرت الأيجاز على الاكثار... وهي وإن كان جرمها ضئيلا وما تضمنته بالنسبة إلى الفن العربي قليلا فربما أشتملت على فوائد لا تقتبس إلا منها وفرائد لا تؤثر إلا عنها» (١٦)، وهذا ابن هشام الانصاري يقول في مقدمة شرحه المسمى «الكواكب الدرية في شرح اللحمية البديرة» «هذه نكت حررتها على اللحمية البديرة في علم العربية لأني حيان الأندلسي مكملة من أبوابها مانقص ومسبلة من أذيالها ماقلص» (١٧).

أما الاستطراد الذي عيبت به الشروح والحواشي على وجه الخصوص، فليس ينطوي في ملتي وأعتقادي إلا على معين لا ينضب من المعلومات المتنوعة في مختلف ألوان المعرفة يعترف منها بمحو العلم ما يشاءون كما يشاءون، وصدق الخليل بن أحمد حين قال «لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم مالا يحتاج إليه» (١٨).

أما ما زعم ان هذا النظام التأليفي يعد مظهرا لانحطاط عصور المماليك وعصور العثمانيين، فعندي أن الواقع التاريخي يكذب هذا الزعم، يستوى في ذلك عهد المماليك وعهد العثمانيين، فقد حكمت لنا كتب التاريخ فيما حكمت ما كان للعلوم في العصرين بعامة وفي عصر المماليك على وجه الخصوص من ازدهار وانتشار، وما كان للعلماء فيهما من منزلة رفيعة، وما كان لحكامهما على اختلاف أصولهم من اهتمام بالتعليم والتصنيف، وفي فهارس المخطوطات والكتب الدالة على آثار السابقين طوفان مما ألف في عصور المماليك وعصور العثمانيين من متون وشروح وحواشٍ وتقريرات ومختصرات تنطق كلها بما حفلت به من ألوان المعارف التي لا يتأني معها أن تنسب إلى التخلف والجمود والضحالة، وفي ظني ان ظاهرة المتون والشروح في حد ذاتها ليست مستحدثة في عصور المماليك وإن تكن تسميتها بهذين الاسمين هي الجديدة، فهناك ما يمكن تسميته بالمتون تحوزا بصرف النظر عن ضخامة حجم أكتيها، وذلك إذا نظرنا إلى كثرة ما صنع لها من شروح وتعليقات وتحوها على مر العصور بسبب غموضها وصعوبة عبارتها وحاجتها الماسة إلى الإيضاح فضلا عن أهميتها وعظم منزلتها، وخير ما يمثل ذلك كتاب سيبويه وجمال الزجاجي وأمثالهما من أمهات الكتب القديمة الهامة، يقول الشيخ محمد أحمد عرفه عن كتاب سيبويه «لم يخدم كتاب في العربية مثلما خدم الكتاب لسبويه، ولم يوضع على كتاب من الشروح والحواشي وتفسير الشواهد مثل ماوضع على الكتاب» (١٩)، وشيبه أيضا بالمتون إلى حد ما المسألة التي وضعها ابن العريف القرطبي المتوفى سنة ٣٦٧هـ لولد

أى عامر المنصور وفيها من العربية مائتا ألف وجه وأثنان وسبعون ألف وجه وثمانية وستون
وجهاً، وما كان من ملك النجاة الحسن بن صالح البغدادي المتوفى بدمشق سنة ٥٦٨هـ
حين أستشكل عشر مسائل نحوية ومنها «المسائل العشر المتعبت إلى الحشر» (١٠).

أما إتمام الدارسين في هذا النظام التأليفي بأنهم لا يتقنون سوى التعامل مع الألفاظ
وتحكيكها مما يعجزون معه عن تذوق أى نص أدبي جميل وعن تطبيق قواعد النحو عليه
لقلة خبرتهم في التطبيق، فإنه من الواضح مافي هذا الإتمام من المغالاة والتطرف، وهو ان
صح وقوعه فإنما يقع من طائفة قليلة من الدارسين الذين ضعف استعدادهم والذين
قصروا همهم في نفس الوقت على دراسة الألفاظ وحدها ولم يتجاوزوها إلى معانيها، ولا
يجوز تعميم الحكم من أجل هؤلاء كما هو الواجب في القضايا العلمية، أما الذين يجولون
الألفاظ منطلقاً إلى المعاني، أو يوحّدون النظرة اليهما، وهم جل الدارسين، فلن يعجزهم
بال تأكيد أن يتذوقوا مضمون أى نص أدبي جميل ويفهموه ويطبقوا قواعدهم النحوية عليه.

وعلى العموم فإنى أعتقد أن هذا الأسلوب من التصنيف يرى فضيلة البحث
والتحصيل، وينسى حيلة الصبر والاعتدال على النفس، ويهمل على دقة الملاحظة، وأن هذه
السلسلة من المؤلفات تتميز اختلافاً لكل ما قبل بلونها الخاص الذى تكثر فيه الصور
الجدلية والاعتراضات والردود عليها لم الاعتراضات على هذه الردود ونحو هذا، وذلك تأسياً
من مصنفها بما كان موجوداً منها في مناظرات قدامى النحويين وفي مجالسهم وحلقات
تعليمهم ومصنفاتهم، وإن تزيدوا في الأمر فأكثرىوا من مزج هذا كله بالفلسفة والمنطق
والجدل.

على أن هناك بعض الظواهر الجديدة بالتسجيل لأنها تزييت على سيادة هذا النظام
التأليفي في عصرى المماليك والعثمانيين، ومن هذه الظواهر ظهور نوع خاص من المتون
النحوية يبحث في موضوع واحد أو في مسألة واحدة بإيجاز، ثم ظهور شروح خاصة
لأكثر هذه المتون، ومن أمثلة هذا وذاك: كتاب «الشفا في أحكام كفا» لأبى حيان
الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ، وأربعة متون أحدثها في إعراب «فضلا ولغة واصطلاحاً
وختلافاً وهلم جزءاً والثاني في استعمال المنادى في تسع آيات من القرآن، والثالث في
مسألة اعتراض الشرط على الشرط، والرابع في أحكام لو وحتى، وهى جميعاً لابن هشام
الأنصاري المتوفى سنة ٧٦١هـ، ومتن «أحكام كل وماتدل عليه» لتقى الدين السبكي
المتوفى سنة ٨٥٥هـ، ومتن «أجزاء الوعد بمسائل أما بعده للجوهري المتوفى بعد سنة

١١٥١هـ، ومتن «أحكام لاسيما» لأحمد السجاعي المتوفى سنة ١١٩٧هـ، و «الرسالة الكبرى على السلسلة» للصبان المتوفى سنة ١٢٦٦هـ، ومتن «الجواهر الفرد في الكلام على أما بعده للدلميجي المتوفى سنة ١٢٣٤هـ، ومتن «أحكام لو» للرشيدى من علماء القرن الثاني عشر الهجرى، ومتن «مسألة الكحل» لنجم الدين سعيد، وهو إيضاح «ما رأيت رجلاً أحسن في عينه الكحل منه في عين زبده»، وشرح «فوح الشذا بمسألة كذا» وهو شرح لابن هشام الأنصارى على متن أنى حيان الأندلسى «الشذا في أحكام كذا» وتكملة له، وشرح «إحراز السعد بالجزء الوعد بمسائل أما بعده» وهو شرح للجوهرى على متنه «إنجاز الوعد بمسائل أما بعده».

ومن هذه الظواهر أيضاً تصنيف بعض الكتب على شكل أسئلة في النحو إجاباتها، وكأنها في ذلك متون وشروح مجتمعة، ومن هذا كتاب «فطر الحى في جواب أسئلة الذهبى» لأبى حيان الأندلسى، وكتاب «الاجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية» للراعى الأندلسى المتوفى سنة ٨٥٣هـ، وكتاب «رفع التليسى فيما سئل به ابن حميس» وهى أسئلة نحوية سئل فيها ابن حميس وأجاب عنها وجمع الأسئلة والاجوبة الشيخ محمد الأمير المتوفى سنة ١٣٣٢هـ، وكتاب «الأسئلة النحوية المفيدة والاجوبة العربية السديده» لأحمد الطهطاوى المتوفى سنة ١٣٠٢هـ، وكتاب «التحفة السنية في شرح الثمرات الخفية في الأسئلة النحوية» لعبد الوصيف الأزهري.

ومن هذه الظواهر كذلك ظهور مصنفات تقتصر على إعراب عبارة المتن وحده، أو على شرح الشواهد مع إعرابها وبيان مناط الشاهد فيها، ومن هذه المصنفات: إعراب خالد الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥هـ لمتن الأجرومية، وتمهين الطلاب في صناعة الاعراب له أيضاً وهو إعراب لالقية ابن مالك، وشرح السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ لشواهد المغنى، ونكت له أيضاً على شرح شواهد المغنى، وكتاب «شواهد الفطر» للخطيب المتوفى سنة ٩٧٧هـ وهو شرح لشواهد الفطر مع إعرابها، وإعراب الكفراوى المتوفى سنة ١٢٠٢هـ لمتن الأجرومية، وكتاب «شفاء الصدر بتوضيح شواهد الفطر» للعدوى وهو شرح لشواهد فطر التدى مع إعرابها، وشرح البجائى لشواهد شذور الذهب وإعرابها، وشرح للقيومى لشواهد الشذور أيضاً مع إعرابها، وشرح الصاوى لشواهد المغنى، وشرح الجرجاوى لشواهد ابن عقيل، وكتاب «فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل» لقطعة العدوى.

ومن هذه الظواهر ما لوحظ كثيراً من ان فريقاً كثيراً من أصحاب المتون كانوا يقومون

بأنفسهم بتصنيف شروح لمتونهم، بالإضافة الى مايقوم به غيرهم من شرحها، ولاشك أن صاحب الدار أدرى بما فيها، وهم لذلك أقدر من غيرهم على إدراك مرامي المتون التي صنعوها، وفهم ماغمض منها، وذكر ماحذف منها وتفصيل ما أختصر فيها، ويمكن التمثيل هذه الظاهرة بآراء هشام الأنصاري في متنيه فطر الندى وشذور الذهب وفي شرحه فما، كذلك يمكن ملاحظة التمازج الدالة على هذه الظاهرة فيما سقناه من قبل في هذا البحث من أسماء العديد من المتون والشروح والحواشي والتقريرات وأسماء أصحابها فلا تعيده هنا.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- الاتجاهات الحديثة في النحو، مجموعة محاضرات، دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧م.
- ٢- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، عيسى الباني الحلبي بمصر، سنة ١٩٦٤م، تحقيق محمد أنى الفضل إبراهيم.
- ٣- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، عبد اللطيف حمزة، ط ٨، القاهرة، سنة ١٩٦٨م.
- ٤- الحيوان، الجاحظ، ط ٢، القاهرة، سنة ١٩٦٥م، تحقيق عبد السلام هارون.
- ٥- أبو حيان النحوي، د. خديجة الخديشي، مكتبة النهضة، بغداد، سنة ١٩٦٦م.
- ٦- شرح المفصل، ابن يعيش، ادارة الطباعة المنوية بمصر، بدون تاريخ.
- ٧- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، محمود رزق سليم، مطبعة الآداب، مصر، سنة ١٩٦٥م.
- ٨- في أدب مصر الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ط ٢، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٣م.
- ٩- في النحو العربي، نقد وتوجيه، د. مهدي القزومي، المكتبة العصرية، بيروت، سنة ١٩٦٤م.
- ١٠- القواعد النحوية سمادتها وطريقتها، عبد الحميد حسن، ط ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٥٢م.
- ١١- الكتاب، سيبويه، دار القلم، مصر، سنة ١٩٦٦م، تحقيق عبد السلام هارون.

- ١٢- اللغة والنحو بين القديم والحديث، عباس حسن، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٦٦م.
- ١٣- المقدمة، ابن خلدون، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.
- ١٤- النحو الوافي، عباس حسن، ط ٢، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٧١م.
- ١٥- النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، محمد أحمد عرفه، مطبعة السعادة، مصر، سنة ١٩٣٧م.
- ١٦- نظرات في اللغة والنحو، طه الزوي، المكتبة الأهلية، بيروت، سنة ١٩٦٢م.

- (١) د. محمد كامل حسن، في ادب مصر العاطفية، ص ٩٣ - ٩٤.
- (٢) الموسوعات كتب ضخمة تضم المعلومات المختلفة الخاصة بموضوع واحد أو أكثر من ذلك والمعتاد في مظان متعددة بعد أن يشار أن التأليف بينها وربط بعضها ببعض الآخر واحكام الصلة بينها في قالب تأليفي منظم متناسق فيه ربط وتقسيم وترتيب ونسابة، وقد تكون الموسوعة كتاباً واحداً ضخماً مؤلف واحداً، أو مجموعة من الكتب المتعددة في موضوعات متنوعة مؤلف واحد أيضاً، وقد يشارك أكثر من مؤلف في عمل موسوعي واحد.
- (٣) عبد الطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص ٣١٤.
- (٤) من آية ٧٩ من سورة النساء، وفيه الآية: وما أصابك من سنة فمن نفسك وأرسلناك ناساً رسولاً يذكرون بالله شهداء.
- (٥) جمع غامق، أي متراكبة، أي حل العزات المترابطة وتلخيص المسائل المتصعبة بعضها من بعض.
- (٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥١ - ٥٢.
- (٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥١ - ٥٢.
- (٨) انظر مثلاً د. مهدي القروبي، في النحو العربي لقد وتوجه، ص ٦٩، وطه الزوي، نظرات في اللغة والنحو، ص ٣٧، وما بعدها، ومحمد أحمد رائق، الإلحاحات الحديثة في لسان النحو، ص ٦٩، وغيره.
- (٩) سيويه، الكتاب، مقدمة الخلق، ص ١ : ٣.
- (١٠) ابن يعيش، شرح المفصل، المقدمة، ص ١ : ٢.
- (١١) الخافظ، الحيوان، ص ١ : ٩١.
- (١٢) عبد الحميد حسن، القواعد النحوية - مادتها وطريقها، ص ٢٧٥.
- (١٣) عباس حسن، اللغة والنحو بين القديم والحديث، ٢١٤ - ٢١٥.
- (١٤) عباس حسن، النحو الوافي، المقدمة، ص ١ : ١٠.
- (١٥) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ٧ : ٢٥٩ - ٢٦٠ تصريف.
- (١٦) محمد أحمد عرفه، النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، ٧ - ٧١، ١٤.
- (١٧) انظر حديثه الحديثي، أبو حيان النحوي، ١٤٥ - ١٥١.
- (١٨) الخافظ، الحيوان، ص ١ : ٣٧.
- (١٩) محمد أحمد عرفه، النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، ٥١.
- (٢٠) انظر السيوطي، نعيه الوفاة، ١ : ٥١٥، ٥٢٧.